شکرزاد

شعر

حسن كامل الصيرفي

شهرزاد

شعر

دار المعارف

٨١/١/٥٥
المطابع
٨٠٥٠
٤٣٣٤

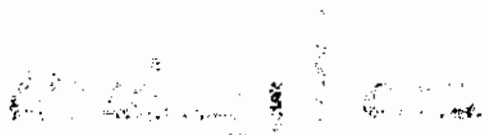

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهـــداء

إلى الجَمَال الذى يطهِّر النفوس ، ويرفع الرُّؤوس ، ويسعى إلى الخير ، ويقضى على الشرِّ . . . أُقدِّم هذه الصورة الجديدة لشهر زاد . . .

حسن كامل الصيرفى

تحية بهرمتاز شاعر

صديقي كامل الصيرفي

طالعت شهرزاد منظومة بقلم كعقد لؤلؤ منضود. وصف الجانب النفسي بالألفاظ المبينة تنم عن أدبية تقدرها حق قدرها.

ولاشك عندك أن شهرزاد في ظهورها تتيح انتباه الرجل بهذه الصورة الكبيرة التي تضاف الى عديد الصور التي ظهرت في مختلف القرون من الحقب والسنين.

وأنا - إذ لا شك لك أنه أتيحت لي فرصة هذه الكلمة، بأنه الطمأنينة عن شهرزاد قبل أن تطلع عليك - أرجو أن تقبل فائق تحياتي مع عبارات التقدير؟

١٩٦٩/١/١٠

توفيق كيرلي

مقدمة

بقلم الدكتور عبد الحميد يونس

كلَّما بدأتُ دراسة هذه القصّة الشعرية ، التى أبدعها الشاعر الفنّان « حسن كامل الصيرفى » ، أحسست بأننى أمرُّ بتجربة فذَّة ، قلَّما مَرَرْتُ بمثلها فى سيرتى الأدبية الطويلة ، ذلك لأن « الصيرفى » كان موضوعيًّا فى غنائيّته ، مُذْ تعرَّفتُ إليه فى بواكير الصبا . وأنا ، من ناحيتى ، أستشعر غَلَبَةَ الإحساس بالذات فى نفس اللحظات ، التى أحاول فيها تقييم شعره .

ولقد آثَرَ هذا العبقرىُّ أن يبتعد عن الأضواء ، وأن يعتصم دائماً بالوقوفِ بمعزل عن الشهرة . وكثيرًا ما حاولتُ أن أجُرَّه إلى أن يأخذ مكانَهُ الجديرَ به ، وهو من القلائل الذين وجَّهوا الحياةَ الأدبيةَ فى جيلنا ، لكى تبرأ من الرَّنين واسترضاء الجماهير فى لحظات المواجهة المباشرة ، بالتصفيق . ومَنْ ذا الذى يستطيع أن ينسى مجلة « العصور » ، التى أنشأها إسماعيل مظهر عام ١٩٢٧ لكى يدفع عن القارئ النَّزَاع إلى الصدق ما ران على الصحافة من مناظرات شكلية . وتُعَدُّ هذه المجلة ، عند مؤرِّخى الفكر ، دعوةً إيجابيةً إلى الصدق فى التعبير . وإلى المنهج العلمى فى التفكير . ولقد نشر فيها الأخ « الصيرفىُّ » بَوَاكيرَ شعره ، استجابةً لهذه الثورة ، وبرهاناً على نزوعه الأصيل إلى الإبداع الشعرى .

وعلى الرغم من ابتعاده عن السير فى المواكب والحفول ، فقد كان سخيًّا فى عطائه . . فقد نشر العديد من أشعاره فى مجلة « المقتطف » ، واشترك مع الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى تأسيس « جمعية أبولُّو » ، التى تُعَدُّ مَعْلَماً من أبرز معالم التطوُّر الأدبى ، وكان من الطبيعى أن يكون له دورٌ كبيرٌ فى تحرير « مجلة أبولُّو » . . . وكان أبرز المساهمين معى فى إصدار « مجلة الراوى الجديد » ، التى عبَّرتْ عن ثورة الشباب عام ١٩٣٥ ، ولا أستطيع أن أنسى أنه هو الذى وضع وقتذاك « نشيد الثورة » الذى نشر فيها .

واعترف بأننى عِشْتُ معه – إذا صَحَّ هذا التعبير – أكثر قصائده ومقطوعاته ، التى سجَّلتها دواوينُه المطبوعة ، والتى لاتزال مخطوطة إلى الآن . واستجاب للمنهج الذى طالما طمحنا إليه ، وهو أن يستغلَّ موهبته الشعرية فى تحقيق التراث ، لتخليصه من الآليَّة فى النَّسْخ والتدوين والتصويب الشكلىّ . . . وغِبْتُ عنه فترة ، حتى إذا التقيت به ، قدَّم لى مجموعة نفيسة من دواوين الشعر ، التى كاد ينساها حتى المتخصصون فى تراثنا الأدبى .

وإبداع الشعر ، وتحقيق روائعه فى التراث ، لم يمنعه من استلهام الأدب الشعبى ، فأُعجب بشخصية « شهر زاد » التى تُعَدُّ مركز الدائرة فى حكايات « ألف ليلة وليلة » وهى ، كما نعلم ، تجاوزت الشعبيةَ إلى العالمية . كما أن هذه الشخصية ، التى تمثل مكانة المرأة فى الحياة من ناحية ، والتى تعمل بوساطة الفن القصصى على تحقيق « الوسط الذهبى » فى السلوك من ناحية أخرى من حقها أن تحفز المبدعين ، المتوسلين بالكلمة والحركة والصورة ، إلى أن يستلهموها فى التعبير عن تجاريبهم الشعرية والفنية .

ولقد مرت أربعون سنة أو تزيد على صداقتى الحميمة بالشاعر « حسن كامل الصيرفى » . . لقد حوّلنا شبابنا إلى تجارب ، أصبحت عند النظرة السطحية مجرد ذكريات ، ولكن النزوع إلى التعبير ، وإلى التفكير ، جعلها حياةً نابضةً موصولةً ومؤثرة . وقد تدفعنى هذه القصة الرائعة عن شهر زاد إلى أن أدخل فى دراسة الليالى العربية ، وأن أستدعى تاريخها ، وأن أفيد من تسجيل أشكالها ، والكشف عن مضامينها ، والتعرف على أهدافها ، ولكن شهر زاد التى أستمع إليها ، وهى تناجينى وتناجى كل إنسان غيرى ، تثبت لى أن المرأة إنسان له إرادته وهدفه ، وأن الالتزام لا يمكن أن يخفى . . وإنه ليسعدنى أن أقدّمها إلى القارئ العربى ، لتكون وثيقة إبداعية من وثائق جيلنا وعصرنا .

٢٠ يناير ١٩٧٩

د . عبد الحميد يونس

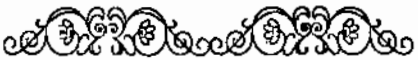

كان مَساء . . .

يا صَبَايَا ٱلْحُسْنِ ، يا غِيدَ ٱلْجَمَالِ
يا ضَحَايَا عابِثٍ طاغِي ٱلْخَبَالِ
ظامِئٌ لِلدَّمِ مِنْ حُرٍّ وغالِ
كم حِسَانٍ قد طَوَتْهُنَّ ٱللَّيَالِي !

الدَّمُ ٱلقَانِى شَرَابٌ لا يَمَلُّهْ
والشَّبَابُ ٱلغَضُّ لَهْوٌ يُسْتَحِلُّهْ
جُنَّ . . . وٱلمَجْنُونُ هَلْ يَرْجِعُ عَقْلُهْ ؟
يَسْبَحُ ٱلمَوْتُ لَدَيْهِ كُلَّمَا أَطْبَقَ لَيْلُهْ !

●

يا صَبَايَا ٱلحُسْنِ – فى التُّرْبِ وفَوْقَهْ –
جاءَ دَوْرِى ... وغَدًا تُسْمَعُ نَعْقَهْ
دَمْعَةٌ تُسْكَبُ فى حُزْنٍ وحُرْقَهْ
ثُمَّ يأْتِى ٱللَّيْلُ كى يَبْعَثَ شَوْقَهْ !

نِقْمَةٌ حَلَّتْ على كُلِّ فَتَاةِ
صَبَّهَا مِنْ صَدْرِهِ ٱلمَحْمُومِ عاتِ
أَخْطَأَتْ أُنْثَى لِتُشْقِى أُنْثَياتِ...
كم بَرِىءٍ ضَاعَ فى ذَنْبِ جُنَاةِ!

●

عَجَباً للمَلِكِ الطَّاغِى ٱلعَبُوسِ
يَتَسَلَّى كلَّ لَيْلٍ بِعَرُوسِ... !
عِنْدَما يَفْرَغُ مِنْ رَاحِ ٱلكُؤُوسِ
يُفْرِغُ ٱلأَعْمَارَ فى جَوْفِ الرُّمُوسِ!

أَنَا قَدَّمْتُ على ٱلْمَذْبحِ نَفْسِى
أَفْتَدِى مِنْ قَبْضَةِ ٱلأَقْدَارِ جِنْسِى
إِنْ أَمُتْ ، فَاشْرَبْنَ مِنْ بَعْدِىَ كَأْسِى
أَو أَعِشْ ، عِشْتُنَّ فى أَمْنٍ وأُنْسِ...

●

أَنا فى سِفْرِ ٱلأَمَاسِى والسَّحَرْ :
قِصَّةٌ تُرْوَى ، ولَحْنٌ ووَتَرْ...
يَعْذُبُ ٱللَّهْوُ لَدَيْهَا والسَّهَرْ
جَسَدٌ غَضٌّ لِمَسْعُورِ النَّظَرْ !

أَنا فى ٱللَّيْلِ لِجبَّارِ ٱللَّيالِى :
مُتْعَةُ النَّفْسِ وإيحَاءِ ٱلخَيَالِ ...
ومَعَ ٱلفَجْرِ لِجبَّارِ ٱلمَآلِ :
طُعْمَةُ ٱلقَبْرِ ودِيدَانِ الزَّوَالِ

●

فَلأُرَوِّضْ ذٰلِكَ ٱلوَحْشَ ٱلعَقُورا !
وأُكَبِّلْهُ إِلَى ٱلحُبِّ أَسِيرَا ... !
ولأُخَدِّرْ فِكْرَهُ فِيهِ فُتُورَا !
ولأُطِلْ فى أَمَدِ ٱلعُمْرِ شُهُورَا .. !

أَيُّها اللَّيْلُ تَمَهَّلْ فى الرَّحِيلِ !
لا تُزِحْ سِتْرَكَ عن فَجْرِ العَوِيلِ
الرَّدَى يَلْمَعُ فى السَّيْفِ الصَّقِيلِ
كُلَّما آذَنَ نَجْمٌ بالأُفُولِ ... !

أَيُّها ٱللَّيْلُ غَدًا يُفْتَحُ بابُ
لِيُوَارَىٰ مِنْهُ حُسْنٌ وشَبَابُ...
كم طَوَى ٱلمَوْتُ ، وكم وَارَى التُّرابُ !
الجَمَالُ ٱلكَأْسُ ، والعُمْرُ ٱلحَبَابُ...

كَيْفَ أَسْتَوْحِيَ لِهٰذَا ٱلْغُولِ قِصَّهْ؟
غُصَّةٌ تَمْلأُ حَلْقِي ، أَيَّ غُصَّهْ!
لم تَعُدْ لِي – والدُّجَىٰ يَنْهَارُ – فُرْصَهْ
وغَدًا تُنْصَبُ لِلقَتْلِ ٱلمِنَصَّهْ...

كَيْفَ أَسْتَوْحِى ، وعَيْنَاهُ أَمَامِى .
تَرْقُبَانِ ٱلفَجْرَ مِنْ سِتْرِ الظَّلَامِ ؟
هو ظَمْآنُ .. ، وفى أَقْسَى ٱلأُوَامِ
لِدَمٍ يُسْفَكُ فى ظِلِّ ٱلغَرَامِ ... !

●

أَىُّ قَلْبٍ فيهِ ، بَلْ أَىُّ شُعُورِ !
حَجَرٌ أَصْلَدُ مِنْ كُلِّ الصُّخُورِ
ماتَ فيهِ ٱلحِسُّ فى مَوْتِ الضَّمِيرِ
وصَحَتْ فيهِ شَيَاطِينُ الشُّرُورِ !

أَنَا – فى ٱلقَصْرِ أَمِ ٱلغَابِ – أَعِيشُ ؟
وحَوَالَىَّ أُنَاسٌ أَمْ وُحُوشُ ..؟
ودِمَاءٌ – ما أَرَاهُ – أَمْ نُقُوشُ ؟
ومِهَادٌ تِلْكَ ، أَمْ تِلْكَ نُعُوشُ ؟

●

يا ٱرْتِعَادَ ٱلقَلْبِ مِنْ هٰذَا السَّرِيرِ !
يا جِرَاحَ الرُّوحِ مِنْ هٰذا ٱلحَرِيرِ !
يا ظَلَامَ النَّفْسِ فى شُعْلَةِ نُورِ !
بِئْسَ ما أَجْرَعُ مِنْ هٰذا ٱلعَصِيرِ !

خَمْرَةٌ تُسْكِرُ ، لٰكِنِّى أُفِيقُ
ويَدٌ تَمْلأُ ، وَالْعُمْرَ تُرِيقُ
ورِحَابٌ وَاسِعَاتٌ بِى تَضِيقُ ...
وأَنَا فِى اللُّجَّةِ الْكُبْرَى الْغَرِيقُ !

●

كَيْفَ أَسْتَوْحِى .. ؟ أَنْقِذِينِى يا سَمَاءُ !
ضَاعَ فِى الأَرْجَاءِ ذَيَّاكَ النِّدَاءُ
صُمَّتِ الدُّنْيَا ، فما يُجْدِى الرَّجَاءُ !
وسَوَادُ اللَّيْلِ يَغْزُوهُ الضِّيَاءُ ...

أَتُرَى تُعْجِبُهُ قِصَّةُ إِنْسِ
يُرْقِصُ الدُّنْيَا على رَنَّةِ كأْسِ
لا يُبَالِى بِغَدٍ يَمْضِى ، وأَمْسِ
إِنْ يَمُتْ حَىٌّ يَجِدْ عَنْهُ التَّأَسِّى ؟

●

أَمْ تُرَى تُعْجِبُهُ قِصَّةُ جِنِّ
حابِسٍ فى قُمْقُمٍ أَو جَوْفِ دَنِّ
غَادَةً تُمْنَعُ مِنْ فِتْنَةِ عَيْنِ
فَتَرى الْفِتْنَةَ فى خاطِرِ ظَنِّ ؟

أَيُّهَا ٱلْمُنْتَظِرُ ٱلفَجْرَ لِنَحْبِى !
أَنَا أَرْثِى لكَ مِنْ رُوحِى وقَلْبِى
أَنتَ فى هَمٍّ وتَعْذِيبٍ وكَرْبِ
لكَ عُمْرِى ... لكَ ما شِئْتَ ٱلْبِى

أَنا أَرْثِى لكَ مُذْ أَوْشَكَ عُمْرِى
يَتَوَارَى عِنْدَ إِطْلَالَةِ فَجْرِ
لكَ عُمْرِى ... لكَ إِشْعَاعَةُ طُهْرِى
وشَبَابِى ، لكَ منهُ خَيْرُ زَهْرِ ...

●

أَنْتَ فى ٱلمَأْسَاةِ بُرْكَانٌ يَثُورُ
ضَعْفُ نَفْسٍ هَزَّها يَأْسٌ قَدِيرُ
وغَرِيقٌ فى ٱلمُحِيطَاتِ يَدُورُ ...
وجَرِيحٌ ، وٱلجِرَاحَاتُ تَفُورُ ....

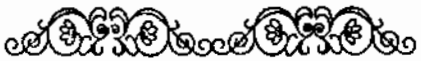

ظُلْمَةُ ٱلعَبْدِ ٱلَّذِى لَوَّثَ عِرْضَكْ
سَوَّدَتْ جَوَّكَ بالشَّرِّ وأَرْضَكْ
سَمَّمَتْ بٱلحِقْدِ وٱلبَغْضَاءِ حَوْضَكْ
وسَقَتْ بالدَّمِ مَغْنَاكَ ورَوْضَكْ

●

أَبِهَذَا ٱلجُرْمِ تَسْتَقْضِى ٱلجَرِيمَهْ ؟
إِنَّهَا فى ٱلأَنْفُسِ السُّوءِ مُقِيمَهْ
تَلِدُ الشَّرَّ ... وبٱلخَيْرِ عَقِيمَهْ
لا تُعَاقِبْ طاهِرَاتٍ بأَثِيمَهْ ... !

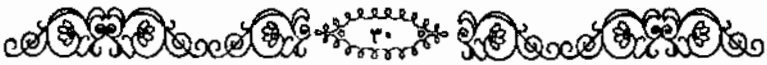

أَنْتَ إِنْسَانٌ بِجُرْحٍ يَتَأَلَّمْ ... !
وأَنَا إِنْسَانَةٌ فى ٱلْغَدِ تُحْطَمْ !
أَنْتَ مَظْلُومٌ ، ولٰكِنْ أَنْتَ أَظْلَمْ !
ما عَلَى تِلْكَ الضَّحَايَا تَتَرَحَّمْ ... !

●

أَنتَ فى لَهْوِكَ إِنْسَانٌ حَزِينُ !
أَنتَ فى حِقْدِكَ مَأْسُورٌ سَجِينُ !
لم يُضَمِّدْ جُرْحُكَ الدَّامِى الدَّفِينُ
فَٱلْعَقِ ٱلْجُرْحَ تَرَ ٱلْجُرْحَ يَهُونُ !

أَنتَ لا تَقْتُلُ فى صُبْحِكَ غَادَهْ
إِنَّما تَقْتُلُ – فى ٱلحَقِّ – سَعَادَهْ
كُلُّ بَيْتٍ أَنْتَ أَطْلَعْتَ حِدَادَهْ
أَصْبَحَ ٱلقَتْلُ لِسَيَّافِكَ عادَهْ...

●

فِكْرَتى كانت : خَلاَصِى ونَجَاتِى
ونَجَاةَ ٱلأُنْثَيَاتِ ٱلأُخْرَيَاتِ...
غَيْرَ أَنِّى ٱلآنَ أُنْسِيتُ حَيَاتِى
أَنتَ بِالإِنقاذِ أَوْلَى مِنْ لِدَاتِى !

إنْ أَكُنْ مُخْطِئَةً فيما وَهَمْتُ
أَو أَكُنْ حَالِمَةً فيما نَوَيْتُ
فأَنَا بِعْتُ ، ولٰكِنِّى اشْتَرَيْتُ ...
بِحَيَاتى أَنا قد يُزْهَقُ مَوْتُ

●

أَنتَ مَأْساتِىَ ! ... فى قَلْبِى جِرَاحُكْ
أَنا لا يُزْعِجِنِى الآنَ صَبَاحُكْ
سَيَخِفُّ الآنَ كالطَّيْرِ جَنَاحُكْ
سَوْفَ لا تَعْصِفُ بالغِلِّ رِيَاحُكْ

سَيَحِلُّ ٱلبِشْرُ بالقَصْرِ ، وتَمْضِى
غَيْمَةٌ مِنْ غَضَبٍ عاتٍ وبُغْضِ
سَتَرَى ٱلبَسْمَةَ فى أَسْرَعِ وَمْضِ
وأَرَى الرَّحْمَةَ قد حَلَّتْ بأَرْضِى

●

أَنَا أَرْوِى لكَ فى كُلِّ مَسَاءِ
ما رَوَى بَعْضُ الرُّوَاةِ ٱلقُدَمَاءِ
قِصَّةً لَيْسَ لها ظِلُّ ٱنْتِهَاءِ
سأُدَاوِى فيكَ جُرْحَ ٱلكِبْرِيَاءِ

سَتَرَى ٱلبَسْمَةَ تَعْلُو شَفَتَيْكْ
وتَرَى الرَّحْمَةَ تَنْدَى مِنْ يَدَيْكْ
وتَرَى ٱلأَفْوَاجَ إِذْ تَسْعَى إِلَيْكْ
بِدُعَاءٍ لكَ مِنْهَا ، لا عَلَيْكْ .. !

●

سَيَقُولُ النَّاسُ : هٰذا شَهْرِيَارْ
عادَ مِنْ رِحْلَتِهِ خَلْفَ ٱلبِحَارْ
والَّذِى كان هُنَا يَغْزُو الدِّيَارْ
شَبَحٌ غُيِّبَ فى ضَوْءِ النَّهَارْ ... !

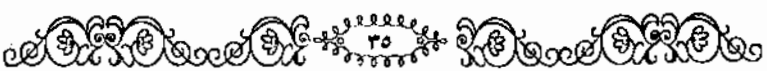

شَهْرَيَارُ عادَ فى ثَوْبٍ جَدِيدِ !
يا لَيَالِى الحُزْنِ رُوحِى لا تَعُودِى !
وابْتَهِلْ يا شَعْبُ لِلمَلْكِ السَّعِيدِ !
وازْهَ يا قَصْرُ بِإِقْبَالِ الوَلِيدِ !

•

أَنا أَرْوِى لكَ ، والدُّنيا سَتَسْمَعْ
قِصَّتِى فى كُلِّ دارٍ ... كلِّ مَجْمَعْ
والدُّنَا تُشْرِقُ ... والأَوْجُهُ تَلْمَعْ
لا تَرَى مِنْ أَعْيُنٍ فيهِنَّ مَدْمَعْ

أَسْعِفِينِى يا حِكَايَاتِ الشُّعُوبِ
بِـرِوَايَـاتٍ لِأَسْرَارِ اَلـقُـلوبِ
وبُطُولاتٍ لِقُوَّادِ اَلحُروبِ
لأُدَاوِى بكِ آلامَ النُّدُوبِ ... !

أَسْعِفِينِى ! ... فالدُّجَى يَمْضِى سَرِيعَا
بَعْدَ أَنْ أَطْفَأَ فى الصَّمْتِ الشُّمُوعَا
قَبْلَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الصُّبْحُ صَرِيعَا
قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْحِشَ الْأَرْضُ النَّجِيعَا !

●

أَسْعِفِينِى ! . . أَسْعِفِينِى ! .. أَسْعِفِينِى !
لأُشِيعَ الْبِشْرَ فى الْوَجْهِ الْحَزِينِ
لأَرُدَّ الْعَقْلَ مِنْ أَسْرِ الْجُنُونِ
وأُعِيدَ الْخَفْقَ للقَلْبِ الطَّعِينِ ...

لَمَعَتْ فى ذِهْنِىَ ٱلمَكْدُودِ فِكْرَهْ
فأَثَارَتْ فى كِيَانِى أَلْفَ ثَوْرَهْ
وٱهْتَدَى ٱلخَاطِرُ بِى مِنْ بَعْدِ حَيْرَهْ
فَبَدأْتُ ٱلقَوْلَ حَتَّى شِمْتُ فَجْرَهْ ...

قِصَّةٌ شَدَّتْ إِلَىٰ صَوْتِى سَمَاعَهْ
ومَضَتْ بِى ساعةً فى إِثْرِ ساعَهْ
وَهْوَ فى صَبْرٍ، وشَوْقٍ، وضَرَاعَهْ
باسِمٌ كالطِّفْلِ تِمْثَالَ وَدَاعَهْ

●

أَذَّنَ الدِّيكُ، فأَنْهَيْتُ المَقَالَهْ...
رَمَقَتْنِى نَظْرَةٌ تُوحِى سُؤَالَهُ:
«ما الَّذِى تَمَّ؟»...فأَلْهَبْتُ خَيَالَهْ
فى غَدٍ تَسْمَعُ ما قالَتْ وقالَهْ...!

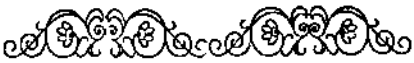

وكان صَبَاح . . . .

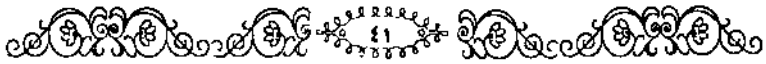

لَيْلَةٌ تَمْضِى ، وتَمْضِى – بَعْدُ – لَيْلَهْ
وصِيَاحُ الدِّيكِ لم تُدْرِكْهُ غَفْلَهْ
مُؤْذِنٌ أَنْ أَخْتِمَ الْقَوْلَ بِقُبْلَهْ
فأَرَاهُ فَوْقَ صَدْرِى يَتَدَلَّهْ ...

صَوْلَةُ ٱلْجبَّارِ صارَتْ ضَعْفَ عاشِقْ !
غَضْبَةُ ٱلْبُرْكَانِ صارتْ هَمْسَ وَامِقْ !
يا لَهُ بَيْنَ يَدِى – كالطِّفْلِ – غارِقْ
فى ٱلكَرَىٰ ... وٱلقَلْبُ بالرِّقَّةِ خافِقْ !

●

أَوَ أَنْتَ ٱلقَاتِلُ السَّفَّاحُ حَقًّا ... ؟ !
أَوَ أَنْتَ ٱلمُزْهِقُ ٱلأَرْوَاحَ أَلَقَا .. ؟ ! (١)
لا أَرَى إلاَّ ضَعِيفاً مُسْتَرَقًّا ...
هامَ وَجْدًا فى هَوَاهُ ... ذابَ عِشْقَا !

---

(١) الأَلَق : الجنون .

عَجَبًا ... وَجْهُكَ لا يُوحِى بِشَرْ !
أَنتَ فى نَوْمِكَ : طَيْفٌ ، لا بَشَرْ
كلُّ ما قُلْتُ هُرَاءٌ وهَذَرْ ... !
كاد أن يَخْدَعنِى فيك النَّظَرْ !

●

الشَّفَافِيَّةُ كادَتْ أَنْ تُبِينْ
خاطِرَ ٱلحُلْمِ على هٰذِى ٱلجُفُونْ !
وٱلوَدَاعاتُ على هٰذا ٱلجَبِينْ
بَدَّدَتْ فىَّ سَحَابَاتِ الظُّنُونْ !

أَنْتَ فى حُلْمٍ ... ولٰكِنِّى أَنَا
لم تَذُقْ عَيْنَاىَ – بَعْدُ – ٱلوَسَنَا
ما ٱلَّذِى فى لَيْلَةٍ بَدَّلَنَا ... ! ؟
هل أَنَا أَنْتَ ... وهل أَنْتَ أَنَا ... ؟

●

أنتَ للرَّغْبَةِ تَمْشِى فى طَرِيقْ
وأَنا أَنْفِرُ مِنْهَا وأَضِيقْ ...
إِنَّمَا ٱلحِكْمَةُ كأْسِى والرَّحِيقْ
فٱرْوَ مِنْ كأْسِىَ حَتَّى تَسْتَفِيقْ !

وإذَا ضِقْتَ بِخَمْرِى ذَاتَ لَيْلَهْ
فَٱغْتَفِرْ لِى – مَرَّةً – أَهْوَنَ زَلَّهْ !
فإذا ٱلْغُفْرَانُ أَلْقَى فيكَ ظِلَّهْ
عُدْتَ قَلْبًا لم تَجِدْ فى الأَرْضِ مِثْلَهْ

●

نَحْنُ ظَمْآنانِ للنَّبْعِ ٱلْمُغَيَّبْ
نَحْنُ تَوَّاقَانِ للسِّرِّ ٱلْمُحَجَّبْ
أَنا فِكْرٌ للأَعَالِى يَتَوَثَّبْ...
أَنتَ قَلْبٌ فى صَدَاهُ يَتَعَذَّبْ...

مَنْ أَنَا ؟ مَنْ أَنْتَ ؟ ... نَحْنُ التَّائِهانِ
فى غَيَابَاتِ الدَّيَاجِى ضارِبَانِ
وٱلْتَقَيْنَا بَعْدُ فى هٰذا ٱلمَكَانِ
نَحْنُ للنُّورِ ٱلمُرَجَّىٰ فاقِدَانِ ...

●

نَحْنُ إِنسانانِ عاشَا فى زَمَانِ
غَامِرٍ بالظُّلْمَةِ أَكْنَافَ ٱلمَكَانِ
غارِقٍ بَيْنَ حُرُوبٍ وٱضْطِغَانِ ...
لَيْتَهُ يَبْحَثُ عن بَرِّ ٱلأَمَانِ

أَنتَ فى نَوْمِكَ : حُلْمٌ فى خَيَالِى
طافَ بى فى دَعْوَةٍ أو فى ٱبْتِهَالِ
لَيْتَهُ فى الصَّحْوِ يَبْقَى فى الظِّلَالِ
صُورَةَ ٱلحُلْمِ على أَبْهَى مِثَالِ...

●

عِنْدَما تَنْهَضُ لا تَمْحُ ٱلوَدَاعَهْ
إِنَّها بَعْضُ مَلاَحَاتِ الشَّجَاعَهْ
كُنْ كما أَنْتَ : سَلاَماً وقَنَاعَهْ !
أَبْقِ للنَّجْمِ مع الصَّحْوِ شُعَاعَهْ !

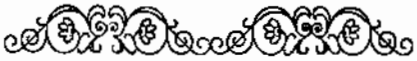

مع الحياة . . . .

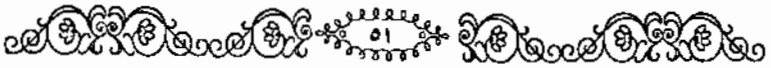

ثُمَّ شَقَّ النُّورُ سِتْرَ الْغُرْفَةِ
فَصَحَا مِنْ سَكْرَةٍ أَو غَفْوَةِ
ضاحكاً فى نَشْوَةٍ... فى فَرْحَةِ
أَهْوَ مَنْ كان مَعِى فى لَيْلَتِى ! ؟

لا وَرَبِّى ، وكأنِّى فى خَيَالْ
أَنَا مِنْ ذٰلِكَ فى شِبْهِ خَبَالْ
مَنْ هُوَ ٱلخاطِرُ فى رَقْصِ ظِلَالْ
مُشْرِقُ ٱلبَسْمَةِ ، رَقْرَاقُ ٱلخِصَالْ ! ؟

●

حَيْرَتى كانت ... وكانت حَيْرَتُهْ
لم تَطُلْ فى النَّوْمِ عَنِّى غَيْبَتُهْ
راعَنِى مَرْآهُ ... طابَتْ نَظْرَتُهْ
زالَ خَوْفِى منهُ ... زالت وَحْشَتُهْ

لم نَعُدْ فى لَحْظَتَيْنَا غُرَبَاءْ
وكأَنَّا مِنْ قَدِيمٍ أَصْدِقَاءْ
ضَمَّنَا بَعْدَ فِرَاقَيْنَا لِقَاءْ
وَهْوَ لم يَمْضِ سِوَى ذاكَ ٱلمَسَاءْ

●

سَرَّنِى منهُ سُؤَالٌ عَجَبُ :
شهريار : « هل مَضَتْ بى فى مَنَامِى حِقَبُ ؟
كِدْتُ أَنْسَى ٱسْمِى ، ويُنْسَى ٱللَّقَبُ !
حَيْرَتى طالت ، وطالَ ٱلعَجَبُ ... ! »

« عَجَبًا ... فى لَيْلَةٍ أُصْبِحُ غَيْرِى !
أَىُّ لَمْسٍ مِنْ يَدٍ ، أَمْ أَىُّ سِحْرِ ؟ »
شهرزاد : لا تَسَلْنِى ... فأَنا أَكْتُمُ سِرِّى !
الشَّبَابُ الغَضُّ فى جِسْمِكَ يَسْرِى

●

التَّجَاعِيدُ الَّتِى فَوْقَ الجَبِينْ
أَيْنَ وَلَّتْ ؟ ... أَيْنَ آثارُ السِّنِينْ ؟
كِدْتَ أَنْ تُصْبِحَ فى لَحْظِ العُيُونْ
كائنًا ؛ ما صِيغَ مِنْ ماءٍ وطِينْ !

شهريار : أَنتِ ، من أنتِ ؟ أَنى جِلْدِكِ ساحِرْ !
لَسْتِ مِنْهُنَّ الضَّعِيفَاتِ ٱلغَرائرْ
أنتِ ؛ مَنْ أَنْتِ ؟ أَنا فى ٱلأَمْرِ جائرْ
مَنْ تَكُونِينَ ؟ ٱكْشِفِى عنكِ السَّتَائِرْ !

●

ما ٱلَّذِى حَوَّلَنِى عن جَبَرُوتِى ! ؟
ما ٱلَّذِى غَيَّرَ بالصَّمْتِ سُكُوتِى ! ؟
ٱهْتَدَتْ رُوحِىَ فى هٰذا الصُّمُوتِ
أَنتِ ذَاتِى رَجَعَتْ لِى ... لن تَمُوتِى !

كَيْفَ بالسَّيْفِ – أَنا – أُزْهِقُ رُوحِي ؟
جَسَدًا كُنْتُ مُقِيماً فى السُّفُوحِ
الدَّمُ ٱلقَانِى غَبُوقِى وصَبُوحِى
والدَّمُ ٱلقانِى ضِمَادَاتُ جُرُوحِى

●

أَنتِ ذَاتِى رَجَعَت لِى ، فَلْتَعِشْ لِى !
كَيْفَ أَرْضَى – أَنَا – فى ذَاتِى بِقَتْلِى !
كيف أَرْضَى ! .. كيف يَرْضَى لِى عَقْلِى ! ؟
كَيْفَ أَجْتَثُّ – أنا – بالسَّيْفِ أَصْلِى ! ؟

أَنْتِ ذاتِى ... كُنْتِ عَنِّى غائبَهْ
شَمْسُ إيمانِى ... وكانت غارِبَهْ
عِشْتُ فى ظُلْمَةِ شَكٍّ حاجِبَهْ
- فى ضَلالِى - كلَّ رُوحٍ تائبَهْ !

●

ما ٱلَّذِى ساقَكِ فى هٰذا السَّعِيرْ ؟
شهرزاد : الذى يَبْعَثُ ظِلاًّ فى ٱلهَجِيرْ
شهريار : ما ٱلَّذى ساقَكِ للجَوِّ ٱلحَقِيرْ ؟
شهرزاد : الذى يَنْشُرُ فى ٱلجَوِّ ٱلعَبِيرْ

شهريار : ما الَّذِى حَوَّلَنى هٰذا التَّحوُّلْ ؟ !
ما الّذى بَدَّلَنى هٰذا التَّبدُّلْ ؟ !
ما الّذى نَقَّلَنى هٰذا التَّنقُّلْ ؟ !
فَلأَعِشْ لَحْظَةَ صَمْتٍ وتأَمُّلْ... !

●

شهرزاد :لا تَعَجَّبْ ما الَّذِى قد حَوَّلَكْ !
إِنَّما الحُبُّ الَّذِى قد بَدَّلَكْ
أَنْتَ بالرَّحمةِ لِى... وأَنَا بالحبِّ لَكْ !
كُنْتَ شَيْطاناً ، فأَصْبَحْتَ المَلَكْ !

أَنْتَ بالبَغْضَاءِ ضَيَّقْتَ رِحَابَكْ
أَنْتَ بالتَّفْكِيرِ عَجَّلْتَ رِكَابَكْ
غَضَّنَ الشَّيْبُ مع الحُزْنِ إِهَابَكْ
واسْتَعَدْتَ الآنَ بالحُبِّ شَبَابَكْ

●

لَيْلَةٌ فى الهَمِّ تَمْضِى هِىَ عامْ
وحَرَامٌ ضَيْعَةُ العُمْرِ... حَرَامْ!
مِتَّ فى الحَرْبِ، فعِشْ بَيْنَ السَّلَامْ
أَيُّها العائدُ مِنْ كَهْفِ الظَّلَامْ!

سَيَقُولُ النَّاسُ ما قُلْتُ أَنَا :
شَهْرَيَارٌ عادَ رُوحًا وَسنا ...
إِنَّما الطاغِي الَّذِى كانَ هُنَا
كان كابُوسًا عَلَيْنَا مُحْزِنَا ... !

●

فِيكَ خَلَّصْتُ شَبَابًا مِنْ مَشِيبْ
فِيَّ أَوْقَفْتَ شَبَابِى لا يَغِيبْ
فكِلانَا مانِحٌ كُلَّ حَبِيبْ
عُمْرَهُ الثَّانى : نَصِيبًا بنَصِيبْ

أَنَا ما جِئْتُ لأَرْقَى عَرْشَ مُلْكِ
إنما جِئْتُ بِرِجْلَىَّ لِهُلْكِى
ثم أَحْبَبْتُكَ فى ساعةِ ضَنْكِ
لم تَدُرْ فى خَاطِرِى هَمْسَةُ شَكِّ

●

أَنا أَحْبَبْتُكَ جَبَّارًا عَتِيًّا
سَيْفُكَ ٱلمَسْلُولُ يُدْمِى ناظِرَيَّا
غَيْرَ أَنَّ ٱلقَلْبَ قد أَوْحَىٰ إِلَيَّا
أَنَّ إِنساناً - وراء ٱلغُولِ - حَيَّا

شَهْرَيارُ ٱلمَلِكُ ٱلخافِقُ حُبًّا ...
شَهْرَيارُ ٱلمَلِكُ الطَّيِّبُ قَلْبًا ...
شَهْرَيارٌ لم يَعُدْ يَنْشُرُ رُعْبًا
شَهْرَيارُ السِّلْمِ لا يُعْلِنُ حَرْبًا

●

شهريار : عَجَبًا ! ... أَحْبَبْتِ فِيَّ الظَّالِمَا ؟
عَجَبًا ! ... أَحْبَبْتِ فِيَّ ٱلآثِمَا ؟
عَجَبًا ! ... أَحْبَبْتِ غِرًّا غَاشِمَا ؟
صَفَحاتِي صِرْنَ لَيْلِى ٱلقَاتِمَا ..

هٰذهِ ٱلغُرْفَةُ... يا كَمْ شَهِدَتْ
نَسَمَاتٍ بِسُمُومِي ٱخْتَنَقَتْ...
ودِماءً بجُنُونِي سُفِكَتْ... !
والضَّحَايَا – هٰا هُنا – كم أُزْهِقَتْ !

●

نَدَمِي أَكبَرُ مِنْ جُرْمِي وإِثْمِي
نَدَمِي يَنْخِرُ فِي رُوحِي وجِسْمِي
نَدَمِي يَصْرُخُ مِنْ أَهْوَالِ ظُلْمِي
لا تَزُفِّي ٱلحُبَّ فِي ماخُورِ جُرْمِي !

أَنْتِ أَسْمَى جَسَدًا – مِنِّى – ورُوحَا
أَنتِ أَعْلَىٰ فى ٱلْهَوَىٰ – مِنِّى – صُرُوحَا
أَنتِ ، ما ٱسْتَوْطَنْتِ بالنَّفْسِ السُّفُوحَا
أَنتِ ما خَلَّفْتِ فى النَّاس جُرُوحَا

●

خَلِّصِى ذَاتَكِ مِنِّى ... خَلِّصِيهَا !
أَنْقِذِى رُوحَكِ مِنِّى ... أَنْقِذِيهَا !
طَهِّرِى نَفْسَكِ مِنِّى ... طَهِّرِيهَا !
عِشْتُ ماضِىَّ غَرِيرًا وسَفِيهَا ...

لكِ فَضْلٌ لَسْتُ أَنْسَىٰ ذِكْرَهُ
أَنْتِ خَلَّصْتِ لِقَلْبِى أَمْرَهُ
أَنتِ أَرْجَعْتِ لِوَجْهِى سِحْرَهُ
أَنتِ أَحْيَيْتِ بِرَوْضِى زَهْرَهُ

●

غَيْرَ أَنِّى قَاتِلٌ مُجْرِى دِمَاءْ
آخِذٌ مِنْ غَيْرِ مَنْحٍ وعَطَاءْ
شَارِبٌ بِالْأَمْسِ فى كُلِّ مَسَاءْ
دَمَ طُهْرٍ وعَفَافٍ ونَقَاءْ...

شهرزاد : شَهْرِيَارُ ! أَنتَ لم تَسْفِكْ دَمَا
كان ظَنًّا ما مَضَى ، بَلْ حُلُمَا
قد خَلَعْتَ الظَّنَّ والوَهْمَ ، فَمَا
أَنْتَ إلاَّ رَجُلٌ قد ظُلِمَا ....

●

أَلْقِ عن قَلْبِك ثِقْلَ الفِكَرِ !
نَحْنُ نَحْيَا فى الرَّبِيعِ النَّضِرِ
قد فَرَرْنَا مِنْ إسَارِ الغِيَرِ
وسَنَبْقَى فى بَدِيعِ السَّيَرِ ...

سَيَقُولُ النَّاسُ : راحَ العاشِقَانْ
غَيْرَ أَنَّ الحُبَّ فى كلِّ مَكَانْ
نَشَرَاهُ فَوْقَ كرَّاتِ الزَّمَانْ
قِصَّةً تُرْوَى على كُلِّ لِسَانْ

لَمَعَتْ عَيْنَاهُ بِشْراً وسُرُورَا
وبَدَتْ بَسْمَتُهُ فى الصُّبْحِ نُورَا
تَنْفَحُ الجَوَّ زُهُورًا وعَبِيرَا
وتَغَنَّى ... ثم غَنَّيْتُ حُبُورَا

لم أَعُدْ أَلْمَحُ فى عَيْنَيْهِ شَرَّا
لم يَعُدْ يُخْفِى وَرَاءَ السِّتْرِ غَدْرَا
بُدِّلَتْ فيهِ ٱللَّيَالِى السُّودُ أُخْرَىٰ
نَسِىَ ٱلْماضِى ٱلذى جُرِّعَ مُرَّا ....

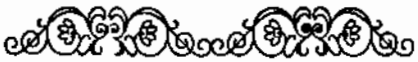

اللَّيلة الثانية بعد الأَلْف

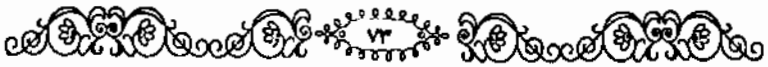

رَفْرَفَ ٱلأَمْنُ على هٰذِى ٱلمَدِينَهْ
وسَرَتْ فى لَيْلِها رُوحُ السَّكِينَهْ
لا ٱنْتِقَامُ ... لا ٱغْتِصَابٌ ... لا ضَغِينَهْ
فَرِحَتْ مِثْلِى ، وقد كانت حَزِينَهْ

أَصْبَحَ السَّيَّافُ فى ٱلقَصْرِ خُرافَهْ
كلُّ لَيْلٍ يَنْتَهِى دُونَ مَخَافَهْ
يَسْأَلُ النَّاسُ صَبَاحاً فى سَخَافَهْ :
كَيْفَ عاشَتْ بَعْدُ...!؟ والتَّسْآلُ آفَهْ !

●

أَصْبَحَ السَّيَّافُ عَيْنَ ٱلمَلِكِ
يَحْرُسُ ٱلأَبوابَ وَسْطَ ٱلحَلَكِ
ساهِراً مِثْلَ نُجُومِ ٱلفَلَكِ
وهى تَسْرِى سَرَيانِ ٱلفُلُكِ

سَيْفُهُ فى غِمْدِهِ سَيْفُ دِفَاعْ
تُحْفَةٌ تَزْهُو، وحَلْىٌ، ومَتَاعْ
كادَ أَنْ يَصْدَأَ مِنْ بَعْدِ ٱلْتِمَاعْ
إنْ بَغَى عادٍ تَصَدَّىٰ للصِّرَاعْ

●

ومَضَتْ أَيَّامُنَا مَوْجَاتِ جَدْولْ
خاطِرَاتٍ تَتَهَادَىٰ... تَتَمَهَّلْ...
عِنْدَما تَدْنُو مِنَ الشَّاطِئْ تَخْجَلْ
وَهْىَ أَبْهَى مِنْ رُؤَىٰ ٱلحُلْم وأَجْمَلْ

عِنْدَما يأْتِى مَسَاءٌ ومَسَاءْ
ويَضُمُّ الغُرْفَةَ النَّشْوَىٰ الضِّيَاءْ
تَحْسُدُ الأَنْجُمُ أَنْسَامَ الهَوَاءْ
حِينَ تَسْرِى بَيْنَنَا وَهْىَ رُخَاءْ

●

سَوْفَ يَجْرِى فى رِحَابِ القَصْرِ طِفْلِى
أَمَلاً يَرْوِى حِكَايَاتِىَ مِثْلِى
ثم يَرْقَى المُلْكَ فى أَرْحَبِ ظِلٍّ
ناشرًا بَيْنَ الوَرَى رَايَةَ عَدْلِ...

يا عَذَارَى وَطَنٍ عِشْتُ أُحِبُّهْ
قد أَظَلَّتْنِى مِنَ اللَّفْحَةِ سُحْبُهْ
وغَذَانِى بِثِمَارِ الخَيْرِ تُرْبُهْ
وتَلَفَّى – بالرِّضَا – خَطْوِىَ دَرْبُهْ !

نَمْنَ فى آتِى اللَّيَالِى آمِنَاتْ
أَنا ذَلَّلْتُ عَصِىَّ الشَّهَوَاتْ
أَنَا حَرَّرْتُ سَجِينَ النَّزَوَاتْ
أنا أَحْيَيْتُ فُؤَادًا كان مَاتْ ... !

●

أَنا أَحْبَبْتُ الَّذِى خِفْتُنَّ مِنْهُ
ونَزَعْتُ الرَّيْبَ والظُّلْمَةَ عَنْهُ
أَنَا قد حَوَّلْتُهُ ما لم يَكُنْهُ
لم يَعُدْ يَخْفَى لهُ وَجْهٌ وكُنْهُ !

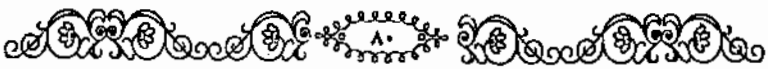

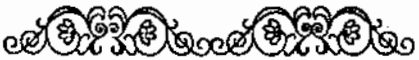

نَمْنَ ، واحْلَمْنَ كأَحْلامِي أَنَا !
سَيَمُرُّ العَيْشُ صَفْوًا آمِنَا
مَرَحٌ فى كلِّ بَيْتٍ ، وهَنَا
وأَهَازِيجُ هُنَا أو هٰاهُنَا...

سَوْفَ يَرْوِى النَّاسُ عَنِّى « أَلْفَ لَيْلَهْ »
ويَقُولُونَ الَّذِى حَدَّثْتُ أَو رَدَّدْتُ قَولَهْ
خَلَدَتْ فَوْقَ شِفَاهِ النَّاسِ قُبْلَهْ
تَمْسَحُ الدَّمْعَ لِتَحْتَلَّ مَحَلَّهْ ....

سيَقُولُ النَّاسُ : ماتت شَهْرَ زَادْ !
لم تَمُتْ ، وَهْيَ لها أَلْفُ مَعَادْ
هى حُلْمُ طَوَّفَ الدُّنْيَا ورادْ ...
وهى أُنْشُودَةُ سِحْرٍ تُسْتَعَادْ

●

لم أَمُتْ ... والشِّعْرُ يَرْوى قِصَّتِى
لم أَمُتْ ... والفَنُّ يُحْيِى صُورَتِى
لَيْتَ مَنْ يَحْيَوْنَ نالُوا مَوْتَتِى !
أَلْفُ قَرْنٍ لا تُسَاوِى لَيْلَتِى ...

الصَّدَىٰ خَلْفَ الدُّجَىٰ ... خَلْفَ السَّوَادْ
يَتَخَطَّىٰ كلَّ حَدٍّ فى اَمْتِدَادْ
هاتفاً فى كلِّ قُطْرٍ ... كلِّ وَادْ :
شَهْرَ زَادْ . . . !
شَهْرَ زَادْ . . . !
شَهْرَ زَادْ . . . !

تنويعات على لحن
شهريار

بقلم الدكتور حسين فوزى

نشرت بجريدة الأهرام فى ١٩٦٩/٤/٢٥

طالعتُ الليلة فى وحدتى السكندرية رباعيات « حسن كامل الصيرفى » ، الشاعر الأصيل ، صاحب اللحن الجميل . وضعها على لسان « شهر زاد » و « شهريار » :

يا صَبَايَا الحُسْنِ ، يا غِيدَ ٱلجَمَالِ
يا ضَحَايَا عابثٍ طاغِى ٱلخَبَالِ
ظامِئٌ للدَّمِ مِنْ حُرٍّ وغَالِ
كم حِسَانٍ قد طَوَتْهُنَّ اللَّيَالِى :

●

نِقْمَةٌ حَلَّتْ على كلِّ فَتَاةِ[1]
صَبَّها من صَدْرِهِ المَحْمُومِ عاتِ
أَخْطَأَتْ أُنثَى لِتُشْقِى أُنْثَيَاتِ
كم بَرِىءٍ ضَاعَ فى ذَنْبِ جُنَاةِ...!

●

نَحَّيْتُ الأوراق الأنيقةَ جانباً ، لأُحلِّقَ فى فضاء التَّأمُّلات والذكريات ، أيّامَ انشغالى بقصص « ألف ليلة » ، ولم أعُدْ إليها منذ انتهيتُ من دراستى للمعارف والأساطير البحرية العربية ، إعداداً لتحليل رحلات السِّنْدباد .

تركَّزتْ تأمُّلاتى الليلة على « شَهْرِيار » ، فعُدْتُ إلى شعر الصيرفىّ لأبحثَ عمّا خطر للشاعر وصفاً له ، فوجدتُ الإشارة المعتادة إلى سلطان أحمر « ظامئ للدم من حرٍّ وغالٍ » :

---

(١) صفحة ١٧

عَجَباً للمَلِكِ الطَّاغِى العَبُوسِ ! [1]
يَتَسَلَّى كلَّ لَيْلٍ بِعَرُوسِ
عندما يَفْرُغُ مِنْ راحِ الكُؤُوسِ
يُفْرِغُ الأَعْمَارَ فى جَوْفِ الرُّمُوسِ
وتتأَمَّلُ شهر زاد تَحَوُّلَ شهريار الجبّار :
صَوْلَةُ الجَبَّارِ صارت ضَعْفَ عاشقْ ! [2]
غَضْبَةُ البُرْكَانِ صارت هَمْسَ وَامِقْ !
يا لَهُ بين يَدِى - كالطِّفْلِ - غارِقْ
فى الكَرَى... والقلب بالرِّقَّةِ خافقِ !

•

أنتَ فى حُلْمٍ ... ولٰكِنِّى أَنَا [3]

---

(١) صفحة ١٧
(٢) صفحة ٤٤
(٣) صفحة ٤٦

لم تَذُقْ عَيْنَاىَ بَعْدُ الوسَنَا
ما الَّذِى فى ليلة بَدَّلنا !
هل أَنَا أَنْتِ ، وهل أَنت أَنَا ؟

ويتساءل شهريار [1] :

أَنْتِ ، مَنْ أَنْتِ ؟ أنا فى الأَمر حائرْ
مَنْ تكُونين ؟ اكْشِفى عنكِ السَتائرْ !

ويمضى الحوار بين الملك الضَالّ التَّائب وبين الساحرة الحسناء ....

وفى الليلة الثانية بعد الألف [2] :

رَفْرَفَ الأَمْنُ على هٰذِى المَدِينهْ
وسَرَتْ فى لَيْلِها رُوحُ السَّكِينَهْ

●

(١) صفحة ٥٧
(٢) صفحة ٧٣

كان ذلك العاهل المجنون مجالَ تفكيرى ، فتساءلتُ أوَّل ما تساءلت : كيف احتمل الشعب سلطانه المجرم ؟ كيف أفْلتَ السفَّاح من العقاب الذى يحيق بأمثاله من الحكام الدمويّين ؟ لأننى لم أقبل أبدًا أن يَسْدَرَ السلطان فى غيِّه ، إلى أن تُوقِف « شهر زاد » المذبحة بقصصها . ألم يكن لأولئك الضحايا من البنات آباءٌ وأُمَّهات ، وأخوات ، وخُطَّاب ، وعشّاق ؟

ودفعنى هذا التفكير إلى سؤال : بَعْدَكَم من الضحايا قَدَّمَتْ شهر زادُ نفسَها فداءً !

جاء بطبعة القاهرة أن مملكة السلطان أقفرت من البنات تماماً ، إذ سرَّب الناس عذاراهم ، حتى يئس وزير الميمنة من العثور على فتيات يَبْنِى بهنّ السفّاح ، ليسلمهن إلى الجلاّد فى الصباح . وهنا تقدمت ابنة الوزير لتحاول صرف السلطان عن غيِّه الدموى .

وفى الترجمة الأوربية الأولى لكتاب « ألف ليلة وليلة » .

[ترجمة أنطوان جالان فى مطالع القرن الثامن عشر عن مخطوطة غير معروفة] يضحّى شهريار بثلاث أو أربع عرائس ، قبل أن تتدخل شهرزاد ، وبذلك حلَّت الإشكال ، وأصبحت ثورة الشعب على العاهل غير ذات موضوع .

نعم إنها مجرّد حكاية ، وأسلوب شرقىّ فى السَّرْد ، أخذ عنه الغرب فى قصصه المسلسل ، حتى قبل ترجمة ألف ليلة إلى لغة أوربية ، إذ عرف الأوربيون كتاب « كليلة ودمنة » لِبَيْدبا الفيلسوف [بدباى وبلباى] من

الأدب البهلوى المنقول عن قصص سنسكريتية . وفى هذا النهج يحاول القصّاص ربط حكاياته بخيط قصصى ، كأنها حبّات العقد فى سمطه .

فبفضل حكاية شهريار واكتشافه السلطانة بين ذِرَاعَىْ عبدٍ من عبيده ، وقَتْلِ الفاجرة ، ودأبه على إعدام كل عروس فى صباحية البناء بها ، انطلقت شهر زاد تُلْهِى السلطان وتسلّيه بأعجب القصص من الشرق والغرب ، لم يَعْتَوِرها كلالٌ فى الجَسَد . ولا ضعفٌ فى الروح ، ولا وهنٌ فى قوة الإبداع . ربما أعادت سرد بعض الحكايات ، ولكن فى قالب آخر ، وكأنها توقّع تقاسيم على لحن الخوارق والأعاجيب . روح شهر زاد وقصصها من روح الموسيقى . الإعادة تتخذ على لسانها نغم الترجيع . والسلطان مأخوذ بحلاوة الموسيقى . سافر محمولا على أجنحة صوتها الساحر فى بحار هادئة وبحار ثائرة ، وطرق باب القصور العجيبة . شاهد الأرصاد النحاسية ، ورجالاً مُسِخوا صخوراً أو طيورًا . تلظّى بنار العشّاق ضرب بينهم الفراق ، وفَرِحَ بفرحهم عند اللقاء . أطربتْ أُذُنَيْه كلُّ ضروب المثانى والمثالث ، وروّحت عنه رقصات الحور ، وبنات الجن . شهد الملاحم الدامية ، وعرف « المناصف » البارعة ، ورحل إلى الجزائر النائية . فعاش شهريار ، كما عاشت أجيال أحقابٍ وأحقاب من بعده ، معلّقة بطُرَف لسان السلطانة الحلوة ، فى عالم مسحور أبدعتْهُ عبقرية امرأة ، تأملت فى غريمها ، وغريم بنات جنسها ، وتبيّنت مواضع الضعف فى نفسه ، فإذا أوّلها جهله بطبائع البشر ، وقصار نظره ، وذلك الغرور المسرف الذى اخترع له الذكور اسم « الغيرة » والذى

لم يجد له السلطان علاجاً إلاّ بإغراقه فى دم المذنبة الأولى ، ودماء الأبرياء ، قبل أن يهيئ لهن الفرصة للمعصية أو للوفاء .

فلو شاء كاتبٌ اليوم أن يحاسب شهريار ، فيثير عليه نخوة الشعب حتى يزيحه عن عرشه بطريقة أو بأخرى ، فهو يعنى رفض شهر زاد وقصصها ، مُؤْثراً عليها الاقتصاص من السلطان ، فى قصة من الأدب الثورى . له أن يسلك فيها نهج الدكتور محمد كامل حسين فى قصته العظيمة « قرية ظالمة » ، فيتناول قضايا الفكر والحكم والضمير والتحليل النفسى للغيرة فى الرجل والمرأة ، وما إلى ذلك !

وهناك قصة فى « ألف ليلة » يعتدى فيها ملك مستبدٌّ عاتٍ على طبيبه وحكيمه الناصح الأمين . وهى قصة دوبان الحكيم يلاقى جزاء سِنِمّار من الملك يونان ، حين يأمر هذا بقطع رأس الحكيم الذى شفاه وعافاه .

تقبَّل دوبان الحكم رابط الجأش ، إنما رجا الملك أن يحتفظ برأسه المقطوع ، وأهداه كتاباً من كتب العلوم الرُّوحانية ، إذا بلغ صفحة من صفحاته ، وطالع فيها نصَّ طلسم معلوم ، تكلّم الرأس المقطوع ليجيبه عمّا يستشيره من الأمور . . وقد كان .

وضع الملك يونان الرأس فى طشت أمامه ، وأخذ يقلّب صفحات الكتاب ، وقد تلاصقت أوراقه من القِدَم ، فكان يستعين على تقليبها بلُعابه يندِّى به أصابعه ، حتى أتى على آخر الصفحات ، فإذا كلُّها بيضاء بسوء ، إذْ كانت مَسْقِيَّةً بسمٍّ ذعاف !

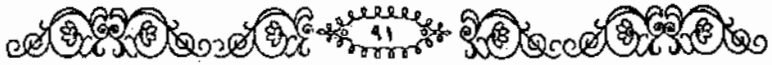

أما قصص شهر زاد ، حلوة اللمى ، فقد قضَتْ على البهيميَّة فى الرجل ، وحين ختمت آخر القصة فى الليلة الأولى بعد الألف ، قال شهريار للسلطانة : أى شهر زاد ! لقد تلقّيتُ دروسك يا ذات الفكر الثاقب ، واللسان المعسول ، وهأنذا قد استمعت لأحاديثك طوال تلك الليالى أشعر بتحوُّلٍ رُوحىّ ، وغبطةٍ ، وحبٍّ للحياة .

من هنا تسلَّم توفيق الحكيم الخيط السحرى ليخيِّل لنا فى تمثيلية ، بل فى قصيدة نثرية رائعة صفة التحوُّل الرُّوحى الذى جرى على لسان شهريار ، فكانت روايته من أعمق وأجمل ما وُفِّق إليه الكتّاب والشعراء من تنويعٍ موسيقىّ على لحن شهر زاد . فهى عند الحكيم رمز « أنا كل ما كان ، وكل ما يكون ، كل ما سيكون . قناعى لم يكتشفه – بعد إنسان » .

وعندى أن بطل قصة الحكيم هو شهريار . فقد صوَّر السلطان وقد رفعته التجربة عن الأرض ، وعن المادة ، وسَمَت روحه إلى ذُرَى الفلسفة ، وعرفت فى هيامها الهيُولىّ شيئًا جديدًا ، ونادرًا فى بنى الإنسان ، وهو سيطرة الروح على الجَسَد ، وقُدرتها على التحليق حتى تبلغ بالإنسان شجرة التصوُّف الوارفة ، وما فتئت بعيدة عن شمس المعرفة تشرق على شجرة المنتهى . « هجر الأرض » ولم يبلغ السماء ، فهو معلَّق بين الأرض والسماء » .

نجحت شهر زاد فى إبعاد السيف عن رقبتها ، وإذا بشهريار يطير عنها .

عبثاً حاولت أن تردَّه إلى الواقع الأرضيّ... وبالوسيلة ذاتها التى جعلت منه فيما مضى سفَّاكا للدماء الأبرياء.

أين هذا من خاتمة قيل بأنها وردت فى مخطوط لألف ليلة ؟ فقد زعم كاتب المقدمة لترجمة جالان فى طبعة سنة ١٨٤٦ « بأن خاتمة الكتاب فى هذه الترجمة إنما هى من بنات أفكار جالان ، أما الخاتمة حسب المخطوطة التى وجدت عام ١٨٠١ فقد جاء فيها أن شهريار فى صباح الليلة الأولى بعد الألف قال : إلى هنا وكفى ! فلْتجزّ رقبتها لأن قصصها الأخير جلب علىَّ البَرَم والملال . . . وهنا راحت شهر زاد تستعطف السلطان بحقّ أطفالها الثلاثة منه ، وقد جاءت بهم اختها دنيا زاد ! » .

لم يكن توفيق الحكيم أوَّلَ ولا آخرَ مَنْ فلسف قصة شهرزاد مع الملك شهريار ، فقد داعب أحلامها طه حسين ، وكشف على أحمد باكثير عن « سرِّها » ورقَّص عزيز أباظة شواربَ شهريار على شعرٍ جزْلٍ فخم .

وفى مستهلّ هذا القرن ألَّف المدعو موريس فيرن حواراً بين السلطان وابنة الوزير ، تحوَّل إلى تمثيلية من ثلاثة فصول وعشرة مناظر ، وضع خلفية موسيقية لها على ألحان شرقية الموسيقيان جاكيه وأندريه كادو ، وأخرجها فيرمان جيميه [أستاذ صديقنا زكى طليمات] على مسرح الشانزليزيه فى ١٢ مايو ١٩٢٠ ، ومثلت شهر زاد أندريه ميجار ، وقام بدور شهريار الممثل فرانس .

وأخرج جان فيلار فى مهرجان افنيون لسنة ١٩٤٨ تمثيلية للشاعر

الفرنسى سوبر فيل عن شهر زاد . أما توفيق الحكيم فقد ألف تمثيلية عام ١٩٢٩ ، وطالعت مخطوطها سنة عودتى من البعثة [بالإسكندرية عام ١٩٣١] . وأُخرجت على مسرح « كوميدى باريس » سنة ١٩٥٥ ، وقامت بالدور الممثلة العالمية القديرة سيلفيا مونفور ، ضيفتنا بدار الأوبرا ، وبالأهرام فى مطالع الموسم الحالى . وأجرى أحد النّقاد الباريسيين بين روايتى سوبر فيل والحكيم ، انحاز فيها إلى صفّ كاتبنا الكبير ، مركّزاً على الأبعاد الفلسفية ، وأشار إلى أن جوَّها الشعرىّ لم يلقَ – بعدُ ، الموسيقىّ الجدير بها .

وبمناسبة الموسيقى نعرف أن نقولا رمسكى – كورساكوف صوَّر لوحته الأوركسترالية الباذخة عام ١٨٨٩ وقد ضمَّنها لحناً عربيًّا من مجموعة فولكارية . ويقول فى ترجمة حياته الذاتية : « كل ما تاقت إليه نفسى هو أن أثير فى السامع الإحساس بحكاية شرقية تحتوى على عجائب وغرائب ، وليست مجرَّد حركات موسيقية تربطها ألحان أساسية بعينها ..... أهمُّها لحن القيولينة المنفردة الذى يرد فى مطالع الحركات الأولى والثانية والرابعة ، كما يرد فاصلا موسيقيا فى الحركة الثالثة ، ويمثل شهر زاد تَسْرد قصصها العجيب على مسامع السلطان الفظ » .

وما قد لا تعرفه هو أن موريس رافيل ، الموسيقى الفرنسى الذى توفى عام ١٩٣٧ ، حاول فى شبابه أن يؤلف على قصة شهر زاد أوبرا ، استخرج حكايتها من ترجمة جالان ، فوضع لها كُتيِّب « لبريتو » وألّف بعض موسيقاها ، فلم يبقَ منها غير « افتتاحية » قاد عزفها بنفسه سنه ١٨٨٩ ،

وأخذ النقاد عليها وُضوح تأثرها بموسيقى ومسكى – كورساكوف وبالا – كيريف . ولم تنشر ، وإنما عاد إليها رافيل ليؤلف منها متتابعته الغنائية لصوت السوبرانو والأوركسترا ، على شعر لتريستان كلنجصور سنة ١٩٠٣ وتتألف من ثلاث حركات أطولها « آسيا » ، ثم « الناى السحرى » ، و « غير المبالى » .

ولا شك فى أن انتشار ترجمة جالان لكتاب ألف ليلة فى أوائل القرن الثامن عشر وسفارات الباب العالى إلى بلاطات أوربا أضافت بعض الألوان الشرقية على موسيقى ذلك القرن ، ظهرت فى « المارش التركى » لموزار ، ثم لبيتهوفن .

وجاء الروماتيكيون – شعراء ومصورين – يستوحون الشرق القريب والبعيد فى لوحاتهم وقصائدهم ، وما أكثر ما عنى الرسامون بتصوير قصص ألف ليلة فى طبعاتها الأوربية ، وبخاصة ترجمة إدوارد لين ، ثم فى عصرنا فى ترجمة ماردروس .

ولقد بلغنى أن هوامش إدوارد لين تعليقاً على ترجمته – وهى جهاز علمىّ كامل لتحقيق الحياة القاهرية فى العصور الوسطى – قد نقلت إلى العربية منذ عهد غير بعيد ، وأن الترجمة ما برحت تتعثر فى أضابير واحدة من وزارتى التعليم ، لأسباب غير مفهومة لا يمكن بأى امتداد للفكر أن تقف حائلاً دون إصدار ترجمة هذه الهوامش إبّان العيد الألفى للقاهرة .

فهرس

صفحة

الإهداء ٥
مقدمة ٩
كان مساء ١٣
وكان صباح ٤١
مع الحياة ٥١
الليلة الثانية بعد الألف ٧٣
تنويعات على لحن شهريار ٨٥

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٧٣٥
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٣٧-٥٨-٢

١/٨٠/٣٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)